مع أبي تمام في آفاقه :

قصيدة النار

— ٣ —

للأستاذ محمود عزت عرفة

قصيدة النار

.. وقصيدة النار التي عقدنا لها هذا الحديث هي ما أنشده أبو تمام في حادث مقتل الأفشين وصلبه ؛ وقد كان معبراً فيها ولا شك عن الشعور الذي ساد عاصمة الخلافة وقتذاك . ولعل القارئ فهم مما قدمناه عن محاكمة الأفشين أننا أميل إلى الانتصار له — ولكن الواقع أن تحقيق تلك القضية والبت فيها برأي حاسم يحتاج إلى أن يفرد له كتاب ممدود الصفحات لا مقال محدود السطور . والذي يعنينا أن نذكره في هذا المقام هو أن أبا تمام كان صدى في قصيدته هذه للشعور العام ، وخاصة الشعور العربي الذي ضاق ذرعاً بنفوذ الموالي من العجم ، وأرمضه ما تمكن لهم من النفوذ في مناصب السياسة والجيش . ندرك هذه الحقيقة من أشخاص الذين اختيروا لمحاكمة الأفشين ، ومن الطريقة التي أعدوا بها الشهود ورتبوا مواقفهم ... وندركه من بعض التهم نفسها في تلونها بروح الشماتة وتحامل العصبية ، مع شيء غير قليل من التكلف والإسفاف ... وندركه أكثر من ذلك ، في هذه القصة التي يحكيها إسحق بن إبراهيم المصعبي — أحد أعضاء هيئة المحاكمة — عن حديث جرى بينه وبين المعتصم بعد مقتل الأفشين قال له فيه ( ) : نظرت إلى أخي المأمون وقد اصطنع أربعة فأفلحوا ، واصطنعت أربعة فلم يفلح أحد منهم . قال إسحق : ومن الذين اصطنعهم أخوك المأمون ؟ قال : طاهر ابن الحسين فقد رأيت وسمعت ، وابنه عبد الله بن طاهر فهو الرجل الذي لم ير مثله ، وأنت فأنت والله الرجل الذي لا يمتاض السلطان منك أبدا ، وأخوك محمد بن إراهيم وأين مثل محمد ؟ وأنا فاصطنعت الأفشين فقد رأيت إلى ما صار أمره ، وأشناس

(١) ابن الأثير : ج ٦ ص ١٩٢ ؛ والطبري ج ١١ ص ٨

في طريق المدنية والحضارة

ثم بعد أن دب الوهن والضعف في حضارة اليونان الفكرية جاءت إلى مصر فبعثتها ، وجددت فلسفاتها وتشريعاتها ، وتأثرت بها ، ونشرت أضواءها الوهاجة على العالمين . فقد استقبلت مصر كثيرا من المفكرين اليونانيين واحتضنتهم ، ونشأت فيها « الأفلاطونية الحديثة » وترعرعت ، وحلت الإسكندرية محل « أثينا » في زعامة العالم الفكرية ، وكانت مكتبتها الضخمة المشهورة متخمة بالمؤلفات الإغريقية وغيرها . .

هكذا كانت صلة مصر باليونان في الزمن القديم حية زاهرة جنى العالم منها أطيب الثمرات . .

وهكذا حافظت مصر على تراث اليونان الفكري ووعت صلتها الثقافية بها . .

وهكذا تعود هذه الصلة الآن بينهما بعد أن لوعهما الحنين ، واستفاض بهما الشوق ! ! . وقد تجلت هذه العودة المباركة في تلك الدعوة الكريمة التي وجهتها اليونان إلى معالي وزيرنا العالم الأديب الدكتور طه حسين باشا لمنحه الدكتوراه الفخرية من جامعة أثينا العتيدة . . . وكم أسعدنا ذلك الحديث التي طلعت علينا به « الأهرام » إذ يقول معاليه بعد عودته «وقد أنشأت مصر في جامعة أثينا كرسي فاروق الأول للغة العربية وآدابها ، وأنشأت اليونان في جامعة فاروق بالإسكندرية كرسيا للغة اليونانية الحديثة وآدابها ، وستنشئ معهدا للدراسات اليونانية القديمة في الإسكندرية . . وقد كانت الحكومة اليونانية رقيقة إلى أقصى حدود الرقة حين قررت أن ترد إلى الإسلام «مسجد أثينا» الذي كان معطلا منذ استقلال اليونان سنة ١٨٢١ »

وأخيرا فإننا نرجو أن تتوطد هذه الصلة الثقافية من جديد ، وتتسع وتعمق ، فلعلها تكون بعثا فكريا جديدا للأمتين العريقتين ، فتستعيدا مكانتهما القديمة السامية بين أمم العالم الحديث

إبراهيم الترزي

فقشل أيه [٢] ، وإيتاخ فلا شيء ، ووصيف فلا مغنى فيه .
فقلت : أجيب على أمان من غضبك ؟ قال : نعم . قلت له : ياأمير المؤمنين ، نظر أخوك إلى الأصول فاستعملها فأنجبت فروعها ؛ واستعمل أمير المؤمنين فروعاً لم تنجب إذ لا أصول لها . فقال : يا إسحق ، لقاساة ما مر بى فى طول هذه المدة أيسر على من هذا الجواب . ه

لقد كان يتجاذب النفوذ فى بلاط المعتصم حزبان كبيران : العرب ومن يتعصب لهم ، والأعاجم ومن ينتمون إليهم . وكان رأس الحزب العربى القاضى أحمد بن أبى دؤاد ، وهو أحد من حاكموا الأفشين . وقد عاش فى كنف المأمون والمعتصم والواثق والمتوكل على التوالى فلق منهم الإكرام والتبجيل جميعا . وكان ركن العرب عندهم وملاذهم الحصين ، يشفع فى مسيئهم فيشفع ، ويلتمس الثواب لمحسنهم فيثاب

وهو الذى استخلص أبا داف العجلى من براثن الأفشين حين اعتل عليه ورام قتله ، وكشف الغمة عن خالد بن يزيد الشيبانى حين علقت به حبائل الدسائس وأمر المعتصم بنفيه إلى الحجاز [٢] وقد انضوى أبو تمام تحت راية هذا الحزب العربى بحكم طبيعته ونشأته وبتأثير من أدبه وثقافته .. و مسبك للتحقق من ذلك أن تسمع قوله لابن أبى دؤاد فى بعض مدائحه :

أخذت بأعضاد العريب وقد خوت
عيون كليلات وذلت جماجم
فأضحوا لو استطاعوا لفرط محبة
لقد علقت خوفاً عليك التمائم
ولو علم الشيخان : أد ويعرب
لسرت إذاً تلك العظام الرمائم
تلاقى بك الحيان فى كل محفل
جليل ، وعاشت فى ذراك العمائم !

والعمائم تيجان العرب كما قالوا ، والشاعر هنا يكنى بها عنهم .. وندع الآن البحث فى موقف الأفشين ، مبنيا عليه أو باغيا ، لنتحدث عن قصيدة أبى تمام التى نكرر أنه إنما أنشأها معبراً فيها عن شعوره وشعور عامة المسلمين فى وقته ؛ فهى من هذه الوجهة كلمة صادقة تفيض بالأحاسيس القوية ، وآية من آيات الطائى لها على الأدب حق التسجيل

الحق أبلج والسيوف عوار
فحذار من أسد العرين حذار
ملك غدا جار الخلافة منكم
والله قد أوصى بحفظ الجار
يا رب فتنة أمة قد بزها
جبارها ، فى طاعة الجبار

بمثل هذا الإنذار القوى العنيف يبدأ أبو تمام قصيدته . وكأنما هو يحاول أن يصك به آذان هؤلاء الموالى جميعا ممن ركبوا رءوسهم فتطاولوا إلى الانتقاص من كرامة العرب ، بل حاولوا أن ينالوا بالأذى ولى نعمتهم المعتصم وهو الكفيل أن يهلك كل متجبر فيهم ، امتثالا لأمر الجبار سبحانه فى أمثالهم من أهل البغى

ثم ما أسرع ما ينفذ أبو تمام إلى أول المعانى الخطيرة التى أعدها لهذا المقام ، فالأفشين قد أولى نعمة لم يبرها ولم يحسن القيام عليها لأنه غير كفء لها . فهو حرى إذاً أن يسلب هذه النعمة ولا كرامة ، وأن يلق بعدها الخسران والبوار جزاء وفاقا :

جالت بحيدر جولة الأقدار فأحله الطغيان دار بوار
كم نعمة لله كانت عنده فكأنها فى غربة وإسار !
كسيت سبائب لومه فتضاءلت كتضاؤل الحسناء فى الأطمار

وتكرير التصريع فى البيت الرابع من القصيدة « جالت بحيدر جولة القدار » ينم على تدفق القريحة بالشعر ، وانطلاق السجية فيه إلى مداها . فالمعانى تترافد على نفس الشاعر ، والقوافى تقتتل فى سبيل احتلال مواضعها من أبيات القصيد .. وما بقى على السامع إلا أن ينتظر الروعة والجمال ، والإبداع والافتنان

* * *

وبعد أن يسجل أبو تمام مخادعة الأفشين لأمير المؤمنين ،

(٢) كذا فى الطبرى : ولعله أنه « بالنون على وزن خجل أى حاسد (انظر القاموس)
(٣) هبة الأيام فيما يتعلق بأبى تمام ص ٩٢

وكيده الذى ارتد إليه فأوبقه ، وما كان يبيته لهذا الدين من شر أليسه الله خزيه وعاره — يعود فيسجل العذر البين للمعتصم فى اصطناع هـذا الخائن ، وفى عمله سنين عما يبطن من النفاق ، ويعتقد من الكفر والخلاف . فمثل هـذا أمر قد تعرض له الرسول عليـه الصلوات من قبل ، وهو المعان من ربه ومن رأيه ومن مشورة صحبه بأعظم العون . وتعرض له أيضا الكرام الخيرة من آل هاشم :

هذا النبى وكان صفوة ربه ... من بين باد فى الأنام وقار
قد خص من أهل النفاق عصابة ... وهو أشد أذى من الكفار
واختار من سمد لعين بنى أبى ... سرح ، لوحى الله ، غير خيار
حتى استضاء بشعلة السور التى ... رفعت له سجفاً عن الأسرار
والهاشميون استقلت غيرهم ... من كربلاء بأوثق الأوتار
فشفاهم (المختار) منه ولم يكن ... فى دينه المختـــار ، بالمختار
حتى إذا انكشفت سرائره اغتدوا ... منـه براء السمع والأبصار

وهذا توجيه بارع لموقف المعتصم ، وتعزية جميلة له فى خطبه . فالأفشين صنيعته ، ويجده صنع يديه . وهذه الخيانة إن دلت على شىء فإنما تدل على سوء الاختيار وخطأ التقدير ، وعلى أن المعتصم لغفلته « قد استعمل فروعاً لم تنجب إذ لا أصول لها » كما قال إسحق بن إبراهيم . وأبو تمام حين يتلمس الأعذار اللطيفـة ، أو يتقرر البراهين القوية ، لا يجد أرحب من التاريخ سجلا للحوادث ، ولا مورداً للأسى والعبر .. فليكن للمعتصم فى انخداعه أسوة بالرسول وآل بيته ، خدعوا فى اختيارهم ، ولم يصيبوا فى بعض تقديرهم ، فما نقصهم ذلك فضلا ، ولا أعلق بهم مذمة

والمشار إليه فى قصـة الرسول عليـه الصلوات هو عبد الله بن سعد بن أبى سرح . صحابى أسلم قبل الفتح واستكتبه النبى عليه السلام ، فكان يكتب موضع الغفور الرحيم ، العزيز الحكيم .. وأشباه ذلك . فاطلع الله عليـه النبى عليه السلام فهرب إلى مكة مرتدا ، وفيه نزل قوله تعالى : « ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله » (١) . وقد أهدر النبى صلى الله عليه وسلم يوم الفتح دمه ، ثم استأمن له عثمان ، فأمنه الرسول (٢)

وفى أخبار أبى الميناء (٣) أنه دخل على عبيد الله بن سليمان فشكا إليه حاله فقال : أليس قد كتبنا لك إلى إبراهيم بن المدبر؟ فقال : كتبت إلى رجل قد قصر من همته طول الفقر ، وذل الأسر ، ومعاناة محن الدهر ، فأخفقتـه فى طلبتى . قال : أنت اخترته . قال : وما على أعز الله الوزير فى ذلك ؟ قد اختار موسى قومه سبعين رجلاً فما كان منهم رشيد ؛ واختار النبى صلى الله عليه وسلم ابن أبى سرح كاتباً فرجع إلى المشركين مرتدا ؛ واختار على بن طالب أبا موسى حاكماً له فحكم عليه !

وأما « مختار » بنى هاشم الذى يشير إليه أبو تمام فهو المختار ابن أبى عبيد بن مسعود الثقفى . كانت لأبيه فى الإسلام آثار جميلة . والمختار هو كذاب ثقيف الذى جاء فيه الحديث . وكان يزعم أنه يوحى إليه فى قتلة الحسين فقتلهم بكل موضع ، وقتل عبيد الله ابن زياد . وله أسجاع يصنعها وألفاظ يبتدعها ، ويزعم أنها تنزل عليه وتوحى إليه (٤)

وإشارة أبى تمام إلى المختار الثقفى تنطوى على معنى دقيق ، فهو رجل على خبث طويته وانحراف مذهبه قد خدم آل البيت ، بما أبلى فى الدفاع عنهم ، وبما أراق من دم أعدائهم . ثم تمادى به طغيانه فزايل الحق وتنكب عن نهج الدين ، فكان أن قاتله مصعب بن الزبير حتى قتله (فى رمضان سنة ٦٧ هـ) . وهكذا عفى بما أحدث من شر على كل ما سلف له من خير . ومثل هذا صنع الأفشين حين أبلى فى الجهاد السنين ذوات العدد ، ونصر الدين بسيفه كما لم ينصره قائد ؛ ثم عما ذلك كله بما تكشف من غدره واستبان من كفره

* * *

ويخلص أبو تمام من احتجاجه للمعتصم ، هـذا الاحتجاج الذى حشد له عقله وعلمه ليعود إلى ذكر غدرة الأفشين فيقول :

ما كان لولا فحش فجرة حيدر ... ليكون فى الإسلام عام فجار

(١) سورة الأنعام : الآية ٩٣

(٢) زهر الآداب : ج ٢ ص ٥٠

(٣) هو أبو عبد الله محمد بن القاسم بن خلاد ، صاحب النوادر والشعر والأدب ، وكان ضريرا . توفى بالبصرة سنة ٢٨٣ هـ

(٤) زهر الآداب : ج ٢ ص ٥١

ما زال سر الكفر بين ضلوعه حتى اصطلى سر الزناد الوارى

قال أبو العيناء : انصرفت (٥) يوماً من عند ابن أبي دؤاد ، فدخلت إلى محمد بن منصور ، فوجدت عنده عمارة بن عقيل ، وكان خلا له ، وهو ينشده قصيدة له فى الواثق ، أولها :

عفت الديار رسومها قفر لعبت بها الأرواح والقطر

فلما فرغ منها قلنا له : ما سمعنا أحسن من هذه الرائية ، أحسن الله إليك يا أبا عقيل . فقال : والله لقد عصفت رائية طائيكم هذا بكل شعر فى لحنها . قلنا له : وما هى ؟ قال : كلمته التى هجا بها الأفشين . فقال محمد بن يحيى بن الجهم : أنا أحفظها ! فقال : هاتها . فأنشده :

الحق أبلج والسيوف عوار فحذار من أسد العرين حذار

فقال له عمارة : أنشدنا ذكر النار ، فأنشد :

ما زال سر الكفر بين ضلوعه حتى اصطلى سر الزناد الوارى
ناراً يساور جسمه من حرها لهب، كما عصفرت نصف إزار (٦)
طارت لها شعل يهدم لفحها أركانه هدماً بغير غبار
ففصلن منه كل عجم مفصل وفصلن فاقرة بكل فقار (٧)

... قال راوى الحديث : ثم ذكر المصلبين (٨) فقال :

سود اللباس كأنما نسجت لهم أيدى الهموم مدرعاً من قار
بكروا وأسروا فى متون ضوامر قيدت لهم من مربط النجار
لا يبرحون ، ومن رآهم خالهم أبداً على سفر من الأسفار

فقال عمارة : لله دره ! لقد وجد ما أضلته الشعراء ، حتى كأنه كان مخبوءاً له . قال أبو العيناء : فاعتقدت فى أبي تمام من ذلك اليوم أنه أشعر الناس ، وما كان ذا رأيى من قبل ! . هـ

لقد نالت هذه القصيدة إذاً غاية الإعجاب منذ إنشادها ، وبلغت من ذلك حظا لم تنافسها فيه إلا قصائد لأبي تمام معدودة . منها — فيما نرى — قصيدتاه اللامية والنونية فى الأفشين أيضا . وهما مدح له وتنويه فى إبان تألق مجده وهكذا يتفوق أبو تمام فى الحديث عن الأفشين مادحاً له فى حياته أو قادحاً فيه بعد موته

ويبدو لنا أنه كان صادق التأثر مطبوع المعانى فى كلتا الحالتين . أما اللامية فقد اقترح عليه إنشاءها عبد الله بن طاهر والى خراسان وهو على بابه بنيسابور ، وقت أن كان الأفشين يعصف بقوى البابكية فى أرشن . ومطلع هذه القصيدة :

(غدا الملك معمور الحرى والمنازل)

روى أبو بكر الصولى قال (٩) : استنشد خالد بن يزيد (١٠) أبا تمام قصيدته فى الأفشين التى ذكر فيها المعتصم ، وأولها :

غدا الملك معمور الحرى والمنازل منور وحف الروض عذب المناهل

فلما بلغ إلى قوله :

تسربل سربالا من الصبر وارتدى عليه بعضب فى الكريهة قاصل
وقد ظللت عقبان أعلامه ضحى بعقبان طير فى الدماء نواهل
أقامت مع الرايات حتى كأنها من الجيش إلا أنها لم تقاتل

قال له خالد : كم أخذت بهذه القصيدة ؟ قال : ما لم يرو الغلة ، ولم يسد الخلة . قال : فإنى أثيبك عنها . قال : ولم ذاك ، وأنا أبلغ الأمل بمدحك ؟ قال : لأنى آليت لا أسمع شعرا حسنا مدح به رجل فقصر عن الحق فيه ، إلا نبت عنه . قال : فإن كان شعراً قبيحا ؟ قال : أنظر فإن كان أخذ شيئا استرجعته منه !

فهذا نصيب اللامية وحظها من التقدير ، أما النونية التى مطلعها (بذ الجلاد (البذ) فهو دفين) فقد مدح بها أبو تمام الأفشين عندما قدم ببابك إلى سر من رأى ، فأمر الخليفة باستتابه وأفاض من نعمته عليه . يقول الطبرى (١١) : توج المعتصم الأفشين وألبسه وشاحين بالجوهر ، ووصله بعشرين ألف ألف درهم ، منها عشرة آلاف ألف صلة ، وعشرة آلاف ألف يفرقها فى أهل عسكره ، وعقد له على السند ، وأدخل عليه الشعراء يمدحونه ، وأمر للشعراء بصلات ، وذلك يوم الخميس لثلاث عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الآخر (٢٢٣ هـ) . وكان مما قيل فيه قول أبي تمام الطائى :

---

(٥) أخبار أبي تمام للصولى ص ٩٣
(٦) فى رواية الديوان : شق إزار
(٧) فى الديوان : فصلن منه ، بتشديد الصاد
(٨) هم بابك الخرمى والمازيار بن قارن وناطس الرومي نائب عمورية وحيدر الأفشين ، صلبوا جميعاً فى موضع واحد

(٩) أخبار أبو تمام ، ص ١٦٣
(١٠) خالد بن يزيد بن مزيد بن زائدة الشيبانى . كان والياً على أرمينية فى أيام الواثق وتوفى سنة ٢٢٠ هـ
(١١) الطبرى : ج ١٠ ص ٣٣٤